عندما عدت من العراق شيوعياً رومانسياً متمرداً
والتحقت على الفور بـ"اخوان عمر فاخوري" المفصولين من الحزب

عدت من العراق في صيف عام ١٩٤٩ مع عائلة حسين مروة بعد أن سحبت من أبي نزار الجنسية العراقية للدور الذي يعود له في "وثبة" الشعب العراقي ضد معاهدة بورتسماوث التي كانت تربط العراق سياسياً ببريطانيا. ومعروف أن "الوثبة" المشار إليها قد أسقطت المعاهدة وأسقطت حكومة صالح جبر التي وقعتها. لكن الانتكاسة التي منيت بها الوثبة ابتداء من أواخر عام ١٩٤٨ وصولاً إلى مطالع عام ١٩٤٩ قد أدت إلى إعدام قادة الحزب الشيوعي العراقي، فهد وثلاثة من رفاقه هم زكي باسيل وحسين الشبيبي ويهودا صديق، وإرسال العديد من المثقفين والسياسيين المناوئين للحكم بقيادة ولي العهد الأمير عبد الإله إلى السجن. وكان في مقدمة هؤلاء الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري الذي كان قد فقد خلال الوثبة شقيقه جعفر شهيداً.

عدت من العراق في ذلك التاريخ حاملاً معي انتسابي الرومانسي إلى الشيوعية وتمردي على مجمل الوقائع التي كانت تعيش فيها البلدان العربية، لا سيما بعد هزيمة الجيوش العربية في شهر أيار من عام ١٩٤٨ في الحرب ضد "العصابات الصهيونية" ومنع تنفيذ قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٨١ الذي قضى بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية فلسطينية ويهودية إسرائيلية. وكان من نتائج تلك الهزيمة تضييع فلسطين بدلاً من الإقرار بقيام الدولة الفلسطينية. تمثل ذلك بضم الضفة الغربية إلى الأردن وقطاع غزة إلى مصر.

لدى وصولي إلى لبنان في تلك الحالة التي أشرت إليها تعرفت إلى عدد من الشيوعيين اللبنانيين الذين أعلموني في ما كان قد حصل للرفيق فرج الله الحلو بتجريده من مسؤولياته الحزبية لمجرد اقتراحه بعدم التسرع في تأييد قرار تقسيم فلسطين والطلب إليه في بتقديم نقد ذاتي وافق عليه. وهو ما صار يعرف بـ"رسالة سالم".

لم أكن أعرف عن فرج الله الحلو إلا القليل. وتشاء الصدف أن أتعرف إلى الأديب المعروف رئيف خوري في بيروت في عام ١٩٥٠ بعد أن كنت قد أرسلت له مقالاً لي نشره في الصفحة الثقافية في جريدة التلغراف التي كان يرأس تحريرها باسم "أخوان عمر فاخوري". لم أشأ أن أنتسب إلى الحزب يومذاك برغم ما كان قد ربطني من علاقة صداقة مع عدد من الشيوعيين. لكنني عندما التقيت برئيف خوري وعلمت منه أن الحزب قد فصله وفصل معه بعض أصدقائه ورفاقه بسبب تضامنهم مع قضية فرج الله الحلو واعتراضهم على "رسالة سالم" التي قدمها فرج الله للحزب، قررت

عدم الانتساب إلى الحزب. وهي رسالة تسيئ إلى فرج الله وإلى الحزب في الآن ذاته. وقد فهمت من رئيف خوري أنه إذا كانت لفرج الله أسبابه ومبرراته بكتابة تلك الرسالة في نقد ذاته فإنه مع بعض المثقفين الشيوعيين لم يستطيعوا أن يقبلوا بما حصل لفرج الله. وقرروا تشكيل "أخوان عمر فاخوري" كصيغة للاعتراض على ما حصل لفرج الله والاعتراض على مجمل سياسات الحزب في ذلك الحين. وعرفني يومها رئيف إلى رفاقه وهم هاشم الأمين الذي كان عضواً في اللجنة المركزية للحزب، وقدري قلعجي الذي كان شريكاً لرئيف في هيئة تحرير مجلة الطريق لدى تأسيسها، والأديبة إميلي فارس ابراهيم شقيقة المفكر المعروف فيلكس فارس، وموريس كامل. وأعلنت منذ ذلك التاريخ ارتباطي بـ"أخوان عمر فاخوري" وبشخص رئيف بالذات الذي كنت شديد الإعجاب بفكره وأدبه وبشخصيته اللامعة. وكنت قد قرأت له كتابه الشهير "الفكر العربي الحديث وأثر الثورة الفرنسية فيه" الذي كان قد صدر في عام ١٩٤٣. وكان ارتباطي برئيف و"أخوان عمر فاخوري" السبب الأساسي بامتناعي من الانتساب إلى الحزب الشيوعي. وقد عبّرت يومها لصديقي نديم عبد الصمد عن موقفي في الامتناع عن الانتساب للحزب عندما جاءني ليطلب مني ذلك في إلحاح بعد أن انتخبت في الجامعة اللبنانية نائباً لرئيس أول رابطة طلابية فيها بصفتي الشيوعية. وكان ذلك في أواخر عام ١٩٥٢ عندما انتسبت إلى الجامعة اللبنانية وخرجت من عملي في التدريس في مدرسة بلدة شمسطار البقاعية. وأذكر أنني ذهبت يومذاك إلى رئيف خوري لأعلمه بأنني رفضت دعوة نديم عبد الصمد إياي للإنتساب إلى الحزب. فاعترض رئيف على الفور على قراري وطلب مني أن أذهب لأقدم انتسابي إلى الحزب، قائلاً لي بأن عليّ وأنا في مطلع شبابي أن أناضل من داخل الحزب من أجل التغيير مردفاً قوله لي بأنه لا بديل من الحزب. والفرق بين موقفك وموقفنا نحن في "أخوان عمر فاخوري" هو أن لكل منا دوره وموقعه في مواجهة ما يمر به الحزب في تلك المرحلة المضطربة من تاريخه. فلبيت طلبه وقدمت طلب انتساب إلى الحزب وضعت فيه كل ما كان يجول في خاطري من أفكار وآراء تتصل بفهمي للشيوعية. ولم تمض أيام على تقديم طلب الإنتساب حتى جاءتني الموافقة مرفقة بإشادة من قبل الرفيق خالد بكداش أبلغني بها نديم عبد الصمد. وعيّنت على الفور مسؤولاً عن المنظمة الطلابية في الحزب بديلاً من نديم الذي أرسله الحزب إلى براغ للعمل في قيادة اتحاد الطلاب العالمي. وقبل أن ينتهي العام الدراسي الأول لي في الجامعة أرسلني الحزب في مهمة أممية من النوع ذاته للعمل في قيادة اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي في بودابست. وصار ما صار في ذلك المنعطف التاريخي في حياتي الذي لم أكن أتوقعه. وهو ما تحدثت عنه في بعض كتبي.

إلا أنني لا أستطيع وأنا أشير إلى ذلك التاريخ إلا أن أتوقف بقليل من الكلام عند كل من "أخوان عمر فاخوري" باستثناء رئيف الذي كتبت عنه كثيراً ويستطيع القارئ أن يقرأ النص الخاص به في كتاب "ملامح الشخصية اللبنانية في سير وإبداعات المثقفين اللبنانيين".

أبدأ بالحديث عن هاشم الأمين وهو ابن المرجع الديني السيد محسن الأمين، وشقيق كل من جعفر وعبد المطلب الشيوعيين وحسن المؤرخ. وكان هاشم عضواً في اللجنة المركزية للحزب كما أشرت إلى ذلك. وكان شديد الارتباط به واضعاً نفسه بالكامل في العمل في شتى الميادين بما في ذلك في الجانب الأدبي. إذ كان يكتب بين وقت وآخر في مجلة الطريق. وقرأت له في أحد أعدادها قصة من قصصه. لكن هاشم الذي أصيب بفجيعة تلك المرحلة من تاريخ الحزب المتصلة بقضية فرج الله سرعان ما دخل في حالة اضطراب هو ذاته. فغادر رفاقه من "أخوان عمر فاخوري" وتخلّى عن انتسابه إلى الشيوعية. وأذكر أنني التقيت به في منزلي برفقة رفيقي الإعلامي فؤاد كحيل في أواسط ثمانينات القرن الماضي قبل أن يغادر الحياة. انقسم الحديث مع هاشم إلى مرحلتين. مرحلة أولى استمعت فيها إلى عرض سريع من قبله للمرحلة الممتدة من وجوده في إطار "أخوان عمر فاخوري" حتى تلك اللحظة. وكان واضحاً في كلامه ما أعطيته صفة المأساة الإنسانية. وأذكر أنه وجه في حديثه الشتائم لكل من سمع باسمه أو كانت له علاقة معه من الشيوعيين بدءاً بكارل ماركس واللائحة طويلة مستثنياً فرج الله الحلو لوحده من دون سواه. بعد الانتهاء من حديثه عرضت له موجزاً لما حصل في المرحلة التي خرج هو فيها من الحزب وصولاً للحظة التي جرى فيها اللقاء مروراً بوقفة عندي عند ثورة التجديد التي قمنا بها نحن الجيل الثاني من القياديين في الحزب وانتصرنا فيها على الحرس القديم وعلى التدخل الفظ من قبل الحزب الشيوعي السوفياتي. وهو ما تكرّس في المؤتمر الثاني وقراراته في صيف عام ١٩٦٨. فقال لي هاشم من دون أن يدرك معنى ما قاله: "لماذا لم تقوموا بذلك العمل في وقت مبكر حتى لا نقع فيما حصل فيه الحزب في تلك الفترة". فأجبته هذا ما كان مفروضاً عليك أنت ورفاقك قبل أن آتي أنا وجيلي إلى الموقع الذي نحن فيه. وضحكنا وانتهى اللقاء.

اما بالنسبة لإميلي فارس ابراهيم وهي كانت أديبة معروفة، وكانت رئيسة للجنة حقوق المرأة لدى تأسيسها في عام ١٩٤٧ فإن لها قصة أخرى. وقد نشأت لي علاقة جيدة معها ومع ولديها، وكلفتني بأن أقدم درساً خاصاً لأحدهما في اللغة العربية. وقرأت لها العديد من كتاباتها ومن قصصها. وتعرفت بواسطتها إلى اسم شقيقها المفكر فيلكس فارس. ودعتني في ذات يوم مع "أخوان عمر فاخوري" إلى منزل شقيقها في المريجات. وهناك حدثتنا عن تاريخ يرتبط بشقيقها

وبعلاقاته مع العديد من المثقفين اللبنانيين والعرب الذين زاروه في منزله وكان من بينهم عميد الأدب العربي طه حسين. لم تغادر إميلي فارس العمل في ميدان الأدب وفي الحركة النسائية بعد أن أخرجت من موقعها في رئاسة لجنة حقوق المرأة وتسلمت مكانها في ذلك الموقع الرائدة النسائية ثريا عدره. وانقطعت علاقتي بها منذ ذلك التاريخ.

غير أن لقدري قلعجي الذي كان أول رئيس تحرير لمجلة الطريق لدى صدورها في عام ١٩٤١ قصة أخرى مختلفة تماماً. إذ هو بدأ يتخلّى عن انتسابه إلى الشيوعية بالتدريج إلى أن تحوّل إلى مؤرخ. وكان من أوائل كتبه كتابه الذي تحدث فيه عن عدد من كبار رواد الفكر في العالم الذي صدر عن دار العلم للملايين. وبقيت ألتقي به بين وقت وآخر في مناسبات كانت تقيمها نقابة الصحافة.

يبقى أن أشير إلى موريس كامل الذي كان في تلك الفترة يعمل في ميدان الأدب. وكان من جملة اهتماماته المشاركة في إصدار مجلة الأدب الجديد التي كان شريكاً له فيها مع آخرين خالي أديب مروة. غادر موريس الانتساب إلى الشيوعية من دون أن يتحول إلى موقف عدائي منها. لكن من طرائف تحولاته أنه أصبح في الأعوام الأخيرة من عمره ولمرحلة زمنية معينة مسؤولاً عن رئاسة تحرير مجلة تابعة لحزب البعث. وقد زرته في مقر المجلة وقلت له مازحاً وساخراً "أهذه آخرتك يا موريس". وكان قد بدأ يحمل اسم صلاح كامل بدلاً من موريس كامل. وضحكنا. لكنني بقيت حريصاً على العلاقة معه معتزاً بتلك العلاقة ومعجباً بأدبه.

تلك هي قصتي مع "أخوان عمر فاخوري" حرصت أن أشير إليها فقط للتذكير بمرحلة كانت منعطفاً كبيراً في تاريخ حياتي.